المثل السائر

القصائد تلك السبع التي علقت على البيت وانفتح للشعراء هذا الباب في التقصيد وكثرت المعاني المقولة بسببه ولم يزل الأمر ينمي ويزيد ويؤتي بالمعاني الغريبةِ واستمر ذلك إلى عهد الدولة العباسية وما بعدها إلى الدولة الحمدانية فعظم الشعرِ وكثرت أساليبهِ وتشعبت طرقهِ وكان ختامه على الثلاثة المتأخرينِ وهم أبو تمام حبيب بن أوس وأبو عباده الوليد بن عبيد البحتري وأبو الطيب المتنبي فإذا قيل إن المعاني المبتدعة سبق إليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرته .

والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له ؟ إلا أن من المعاني ما يتساوى الشعراء فيهِ ولا يطلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر لأن الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأولِ كقولهم في الغزل .

(عَفَتِ الدِّيَارُ وَمَا عَفَتْ ... آثَارُهُنَّ مِنَ الْقُلُوبِ) وكقولهم إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه وإن الواشي لو علم بمرار الطيف لساءه وكقولهم في المديح إن عطاءه كالبحر وكالسحاب وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد وإنه يجود ابتداء من غير مسألة وأشباه ذلك وكقولهم في المراثي إن هذا الرزء أول حادث وإنه استوى فيه الأباعد والأقارب وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة وإن بعد هذا الذاهب لا يعد للمنية ذنب وأشباه ذلك .

وكذلك يجري الأمر في غير ما أشرت إليه من معان ظاهرة تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة وتستوي في إيرادهاِ ومثل ذلك لا يطلق على الآخر فيه اسم السرقة من الأولِ وإنما يطلق اسم السرقة في معنى مخصوصِ كقول أبي تمام .

(لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ ... مَثَلاً شَرُوداً فِي النَّدَى وَالْبَاسِ) .

(فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِهِ ... مَثَلاً مِنَ المِشْكَاةِ والنِّبْرَاسِ) .

فإن هذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمامِ وكان لابتداعه سببِ والحكاية فيه مشهورةِ وهي أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها